

د/ بوجاجة مسعودة

المقياس: مدخل إلى علم الآثار

عنوان المحاضرة: الحفريات الأثرية

تعد الحفريات الأثرية أحد الأساليب المتبعة في البحث والتقصي عن الآثار وعلى عكس المسح الأثري الذي يهتم بجمع الآثار المتواجدة على سطح الأرض فإن الحفريات الأثرية تهتم بجمع ودراسة الآثار المتواجدة تحت سطح الأرض والتي تشكل مختلف الطبقات الأثرية

1_ مفهوم الحفريات الأثرية:

يقصد بالحفريات الأثرية جميع أعمال الحفر التي يقوم بها علماء الآثار داخل المواقع الأثرية والغوص في طبقاتها لاستخراج اللقى والبقايا الأثرية المدفونة تحت الأرض وفق مناهج وطرق علمية محددة وتسجيلها ووصفها والمحافظة عليها وترميمها وهذا من أجل استخلاص المعلومات المتواجدة بها بهدف إعادة بناء حياة الإنسان القديم والتعرف على جميع مظاهرها

2_ تطور الحفريات الأثرية وأهم روادها:

إن الاهتمام بالآثار والتحف القديمة واستخراجها من باطن الأرض يرجع إلى العصور القديمة وذلك عند الملوك والحكام الكلدانيين والرومان والعرب المسلمين وكذا الكتاب والمؤرخين إلا أن الطرق العلمية للبحث عن الآثار تعتبر حديثة العهد وهي في تطور مستمر وقد أدى إلى فهم المعنى الحقيقي للآثار واستخلاص مدلولها الحضاري والفني في تطوير الطرق العلمية للبحث والحفر عنها حيث إن أساليب الحفريات الأثرية تطورت مع تغير النظرة إلى المخلفات الأثرية وهذا نتيجة لعدة عوامل ساعدت في فهم المعنى الحقيقي للآثار ومن أهمها:

_ ظهور العديد من المؤلفات التي تبحث في تاريخ الفن وتطوره وأنواعه ولعل أهمها الكتاب الذي ألفه العالم الألماني فيلكمان سنة 1764م تحت عنوان " تاريخ الفن القديم " حيث ساعدت هذه المؤلفات في التعريف بالفن وأهمية البقايا الأثرية من الناحية الفنية والحضارية بغض النظر عن قيمتها المادية أو مادة صنعها

_ اكتشاف مدينتي بومبي وهيركولانوم بايطاليا في القرن الثامن عشر وإجراء حفريات بها ما ساعد في اكتشاف عد كبير من البقايا الأثرية ذات الأهمية الكبيرة والتي ساهمت في التعريف بالإطار الحضاري للموقعين.

اكتشاف حضارات أقدم من الحضارتين اليونانية والرومانية وكذلك التمكن من فك رموز الكتابة المصرية القديمة من طرف شامبليون سنة 1822 ما وسع المجال للبحث في حضارات وثقافات أخرى.

وكل هذه الأسباب دفعت بالباحثين لتكثيف أعمال الحفر في مختلف مناطق العالم بعد ان كانت أعمال الحفر مقتصرة في البداية على بلاد اليونان وايطاليا والعمل على تطوير أساليب ومناهج للبحث الأثري من اجل الحفاظ على بقايا والمواقع الأثرية واستخلاص النتائج والقيم الحضارية لمختلف هذه الحضارات والثقافات.

وعلى الرغم من انتشار العديد من الأعمال الحفر في مختلف مناطق العالم إلا أن أعمال الحفر الفعلية لم تبدأ إلا في القرن التاسع عشر وقد كان للعديد من المحاولات والحفريات التي قام بها الباحثين والمهتمين بالآثار دورا كبيرا في تطوير مجال الحفريات الأثرية والوصول بها إلى ما هي عليه اليوم ومن أبرز هذه الحفريات الحفريات التي قام بها الرئيس الأمريكي توماس جيفرسون thomas jefferson في إحدى مقابر ولاية فرجينيا 1784م حيث يعتبر أول من استعمل التسجيل الطبقي فيها إلا انه لم يعط للطبقات اسمها المعروف حاليا.

وفي سنة 1851م قام الكابتن ميدز تايلور meadows taylor بإجراء حفريات أثرية في مقابر ميغاليتية في منطقة حيدر اباد الأثرية بالهند حيث اتبع فيها منهجا علميا دقيقا اعتمد على التسجيل والرسم الدقيق للمقاطع ووصفها كما ضمن حفريته سجلا للمكتشفات وقام بتوضيح الاختلاف والتباين بين الطبقات الأثرية ويمكن اعتبار هذه الحفريات أول حفريات أجريت بالطريقة العلمية الصحيحة.

وتوالى بعد هذه الحفريات العديد من الحفريات كالحفريات التي قام بهاش ليمنان H. schliemann بكل من طروادة ومسينا لتعرف الحفريات تقدما آخر، وهذا عند قيام الكولونيل ستوفيل colonel stoffel بإجراء حفريات في فرنسا خلال حكم نابليون الثالث بإحدى المواقع الأثرية التي تمثل معسكرا رومانيا يعود للحكم الإمبراطورية يوليوس قيصر، حيث اعتمد فيها على تقسيم الموقع إلى خنادق عرضية يفصل بين الخندق والآخر مسافة تتراوح ما بين 20متر و30 متر وقام بإزالة التربة بطريقة أفقية وصولا إلى الطبقة الجيولوجية.

وفي عام 1880م قام بيت ريفز pitt Rivers بإجراء حفريات أثرية في مقاطعة ولت شاير walt shire شرق دورست حيث تميزت هذه الحفريات بالدقة اللامتناهية في تحديد الطبقات وسرد جميع تفاصيل الحفريات والتسجيل الدقيق لكل ما عثر عليه شاهده معتمدا في ذلك على التسجيل الثلاثي الأبعاد (الطول × العرض × العمق).

لقد استمر القيام بالحفريات الأثرية مع تطوير دائم في مختلف المناهج والطرق للقيام بها بهدف الحفاظ على الآثار، والتمكن من استخلاص النتائج الصحيحة بعد الانتهاء منها ما جعلها تصبح أكثر دقة، ومن أهم تلك الحفريات هي التي قام بها العالم الهولندي فان كیفن van Giffen في هولندا، والعالم الألماني جيرهارد بيرسو Gerhard Berus بكل من الاشمونين وتونة والجبل بصعيد مصر، والعالم الانجليزي مورتيمر ويلر في حفرياته بباكستان وانجلترا كما ظهرت العديد من المؤلفات تهتم وتبحث في مجال الحفريات الأثرية من أمثال فلاندرز بيتري F petrie وبادي Bade .W F

3_ أنواع الحفريات: تنقسم الحفريات الأثرية إلى نوعين رئيسيتين وهما

أ_ الحفريات على اليابسة: وتنقسم بدورها إلى ثلاث أقسام وهي

- **الحفريات الانقاذية (fouille de sauvetage):** ويكون هذا النوع من الحفريات بطريقة مفاجئة، ولا يحتاج لإعداد ملف أثري بل يكون بطريقة استعجاليه من أجل انقاذ الآثار التي يتم العثور عليه صدفة أثناء القيام بأشغال الحفر لإنجاز مشاريع تنموية كبرى كشق الطرقات أو بناء السدود، وفي هذه الحالة تتوقف الأشغال ويتم إبلاغ السلطات المعنية التي ترسل بعثة متخصصة للتدخل من أجل انقاذ هذه الآثار وتحديد حيز الموقع الأثري وتسييجه لحمايته.
- **الحفريات الوقائية (fouille de sauvegarde):** يتم برمجة الحفريات الوقائية من أجل التأكد من خلو الموقع من الآثار، حيث قبل الشروع في إعداد المشاريع التنموية، يعرض الملف على لجنة يكون ممثل مديرية الثقافة عضوا فيها وعند الدراسة والمعاينة الميدانية يتضح إن الموقع المختار لإنجاز المشاريع يتضمن بقايا أثرية، ففي هذه الحالة يتم إعداد ملف يوجه للوزارة الوصية من أجل برمجة حفريات وقائية للتأكد من أهمية الموقع الأثرية وحصر حدوده ومنع تلف الآثار المتواجده فيه.
- ومما سبق نلاحظ أن الفرق بين الحفريات الانقيادية والوقائية يمكن في إن الأولى تكون بعد أن تم المساس بأجزاء من الموقع الأثري إما الثانية فتكون قبل انطلاق الأشغال ولهذا تسمى وقائية.
- **الحفريات المنظمة والمبرمجة (fouille organisée et programmée):** يتطلب القيام بهذا النوع من الحفريات إعداد ملفا أثريا من طرف الباحث الأثري المسؤول عنها من أجل الحصول على الرخصة من طرف الوزارة الوصية، وبعد الحصول على الرخصة يتم تحديد الجهة المسؤولة عن تمويل الحفريات والتي تسهر على توفير جميع الإمكانيات المادية اللازمة للقيام بالحفريات من وسائل الحفر والرسم والقياس ومكان الإيواء والإطعام ووسائل النقل وغيرها.

ب- الحفريات تحت المياه وفي البحار:

تعود بدايات البحث عن الآثار الغارقة إلى القرن التاسع عشر عندما قام البحرة بالتنقيب عن الآثار الغارقة مع حطام السفن من أجل الثراء السريع، ولكن سرعان ما انتبه علماء الآثار إلى أهمية هذه البقايا الأثرية الغارقة كونها جزء من التراث الإنساني وعاملا لفك الغموض عن الحضارات التي قامت على ضفاف الأنهار والبحار، فبدءوا بإجراء العديد من الحفريات تحت مائية ويشهد هذا النوع من الحفريات تطورا كبيرا خاصة في أوروبا، أما في الدول العربية فيعرف هذا المجال تأخرا كبيرا رغم انتشار العديد من السفن والموانئ القديمة الغارقة في مياهها الإقليمية، وكل الاكتشافات التي تم العثور عليها بهذه المناطق كانت بطريقة عريضة كما حدث في المهديّة بتونس، أين عثر صدفة على مجموعة من التماثيل تم استخراجها بين سنتي 1907 و 1913م.

ويستخدم علماء الآثار قيامهم بحفريات تحت المياه طرقا عدة تم اقتباسها من الطرق المستخدمة في الحفريات على سطح الأرض، كما يعتمدون على التصوير الجوي فوق مياه صافية للكشف عن بقايا السفن أو المدن الغارقة، ويستخدمون أجهزة السونار وأدوات كشف المعادن للكشف عن الآثار المغمورة، ويستعملون الغواصات للغوص في الأعماق ورسم الخرائط والقيام بأعمال التسجيل، ويعملون داخل حجرات عازلة للضغط وصالحة للعمل تحت الماء، لرفع المكتشفات الأثرية إلى سطح الأرض لدراستها بشكل أدق يستخدمون البالونات.

4- مراحل الحفريات:

تمر الحفريات الأثرية بثلاث مراحل أساسية، وهي مرحلة ما قبل الحفر ومرحلة تنفيذ الحفريات ومرحلة ما بعد الحفر وهي ما يعرف بأساليب التعامل مع المكتشفات الأثرية والتي سنتعرض لها في المحاضرة التالية:

مرحلة ما قبل الحفر: تتميز هذه المرحلة كونها مرحلة تهتم بالجانب الإداري للحفريات بالدرجة الأولى، وما يتم فيها ما يلي:

- اختيار الموقع المراد إجراء الحفريات الأثرية به.
- إعداد الملف الأثري من طرف رئيس الحفريات الأثرية وإرساله للجهة الوصية للحصول على الرخصة لإجراء الحفريات الأثرية
- تحديد الجهة المسؤول عن تمويل عملية الحفريات
- تحديد أعضاء فريق الحفريات الأثرية: حيث يتكون فريق الحفريات الأثرية من مجموعة من الأعضاء يتألفهم رئيس الفرقة وهو عالم آثار متخصص في الحفريات الأثرية، كما يتضمن الفريق مجموعة من الأثرين في مختلف التخصصات، جيولوجيين، مهندسين، معماريين، مختص في الطبوغرافيا، مصور، رسام، عمال وطلبة في علم الآثار بالإضافة إلى طبيب وسائقي سيارات.
- توفير المستلزمات الضرورية لعملية الحفريات: تحتاج الحفريات الأثرية إلى توفير العديد من المستلزمات منها جهاز التيودوليت أو محطة الشاملة وجهاز النيفومتر وفؤوس ومعاول ومسطرين وفرش وأشرطة قياس وأقلام وأوراق ميليمترية و أوراق للرسم وأدوات للترميم وعربات لنقل الأثرية وغيرها، كما يحتاج الفريق إلى مجموعة من السيارات ومخبر للترميم وغيرها.
- ب- مرحلة الشروع في الحفريات الأثرية: وفي هذه المرحلة يتوجه فريق الحفريات إلى الموقع الأثري ويبدأ في عملية الحفر، وينقسم هذه المرحلة إلى عدة خطوات وهي

1- تحديد مجال الحفريات:

تختلف مساحة المواقع الأثرية عن بعضها البعض، إذ نجد مواقع ذات مساحات شاسعة وأخرى متوسطة أو صغيرة الحجم وعلى هذا الأساس ينبغي على فريق الحفريات ان يبدأ حفرته بتحديد المجال المراد إجراء الحفريات الأثرية فيه وهذا ربحا للوقت، والوصول للنتائج في اقل فترة زمنية ممكنة، ولهذا فمن الواجب اختياري الأماكن الإستراتيجية من هذه المواقع، للتمكن من الحصول على أكبر كمية من المعلومات، حيث يتحكم باختيار الأماكن الإستراتيجية عدة اعتبارات أهمها:

البدء بالحفر من أجزاء الموقع التي تظهر بها مخلفات معمارية على سطح الأرض الاستعانة بالصور الجوية والخرائط الطبوغرافية أو غيرها من وسائل الكشف عن الآثار لتحديد الأماكن التي تتواجد بها أكبر نسبة من البقايا الأثرية، والانطلاق في عملية الحفر.

2- تحديد مكان وضع الرديم: ونقصد بالرديم جميع الأتربة يتم إزالتها أثناء القيام بعملية الحفر، والذي قد يحتوي على بقايا أثرية ما يتوجب الاحتفاظ به، ولهذا يجب تخصيص مكان محدد لوضعه فيه، ويجب أن يكون مكان وضع الرديم خاليا من الآثار وبعيدا عن مكان الحفر، حتى لا تعاد التربة بسبب الرياح فتطمس ما تم حفره كما يجب أن يكون بعيدا عن الموقع الأثري حتى لا يضطر فريق الحفريات لنقله مستقبلا، ويتم استخدام عدة وسائل لنقل الرديم كعربات اليد أو الشاحنات أو غيرها وهذا حسب طبيعة الموقع الأثري.

3- تخطيط الحفريات : ونقصد بتخطيط الحفريات تقسيم الموقع الأثري إلى مربعات ويكون تخطيط الحفريات حسب منهج الحفر وطبيعة الموقع، فمثلا إذا استخدموا منهج ويلر في الحفر فإننا نقسم الموقع إلى مربعات متساوية 5م تتخللها ممرات بمسافة 1متر، بينما إذا اعتمدنا طريقة التخطيط حسب منهج هاريس أو رقعة الشطرنج فلا وجود للممرات، كما تتحكم طبيعة الموقع الأثري في اختيار منهج الحفر ففي حالة التلال والهضبات الدائرية الصغيرة يفضل منهج فان كيفن، أما في المواقع الصحراوية الشاسعة فيفضل تخطيط الحفريات وفق منهج هاريس، أما إذا كانت الحفريات في مواقع جبلية وشديدة الانحدار فيستحسن تقسيم الموقع إلى مدرجات في شكل أشربة متساوية المقاسات،

ولتخطيط الحفريات يجب تعيين النقطة المرجعية، وهي نقطة ثابتة في الموقع الأثري يتم تعيينها بعلامة ولون محدد لتكون المنطلق في تخطيط كامل الموقع الأثري، وبعدها يتم تحديد الجهات الأربعة للموقع الأثري (شمال - جنوب - شرق - غرب) ويتم تعيينها بمحورين متعامدين تماما بزاوية 90 درجة واعتمدا على هذين المحورين يتم تقسيم كامل الموقع إلى شبكة من المربعات حسب المقاييس والمنهج المراد استخدامه في عملية الحفر،

وهذا باستخدام الأشرطة المترية أو جهاز التيودوليت أو المحطة الشاملة أو النيفو متر لتحديد المربعات.

4- الشروع في الحفر : بعد الانتهاء من تخطيط الحفريات يتم الشروع في عملية الحفر، وتبدأ هذه العملية بتقسيم أفراد الفريق إلى مجموعات مناسبة لحجم المربعات بحيث لا يحدث اكتظاظ أو نقص في عدد الأفراد ويعين مسؤول على كل مربع، يهتم بضبط النظام داخل المربع وتوزيع المهام على أعضاء المجموعة، ومراقبة العمل، وضمان سلامة المكتشفات الأثرية، وتتم عملية الحفر من الأعلى إلى الأسفل بإزالة طبقة بطبقة حتى الوصول إلى الطبقة البكر، مع الأخذ بالحيلة والحذر كلما اقتربنا من اللقى الأثرية، حيث يجب تغيير أدوات الحفر كاستبدال الفأس بالمسطرين أو الفرشاة حسب نوع اللقى الأثرية وهذا من أجل عدم إتلاف اللقى الأثرية.

ولا يتم الانتقال من مربع إلى آخر إلا بعد الانتهاء الكلي من المربع الأول والوصول إلى الطبقة البكر.

ويجب أن تكون عملية الحفر ممنهجة وعلمية حيث يجب الأخذ بعدة نقاط أهمها:
أخذ القياسات أثناء الحفر: يجب مراعاة الدقة في أخذ المقاييس وتسجيل أماكن تواجد اللقى الأثرية، حيث تساعد شبكة المربعات في تسجيل الأبعاد الثلاثة (الطول، العرض، الارتفاع) لأماكن تواجد المكتشفات الأثرية.

قراءة الطبقة : يشكل الاستقرار البشري بالموقع مع مرور الزمن الطبقات الأثرية والتي تتباين فيما بينها من حيث الحجم واللون ونوعية التربة وما تحتويه من بقايا أثرية أو مواد عضوية وغير عضوية، ويجب على الأثري خلال القيام بعملية الحفر بتحديد هذه الطبقات وقراءة دقيقة، لأن هذه القراءات تساعد في تحديد مستويات الاستيطان البشري بالموقع وتحديد العلاقة بين كل مستوى وآخر، كما تساعد في تحديد الفترة الزمنية الفاصلة بين كل مستوى ، كما تساعد القراءة الجيدة في تأريخ الطبقات سواء من خلال البقايا الأثرية أو بتحليل المواد العضوية أو غير العضوية المتواجدة بها.